

فصل

يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال زين الدين الواعظ

الذي كان صلاح الدين يكاثبه بوقائعه، وهو الذي نم على عمارة وأصحابه بما كانوا عزموا من قلب الدولة الناصرية المصرية كما سبق، وسبب ذكره هنا انه هو الذي شرع في تفضيل مصر بكتاب كتبه الى السلطان في هذا العام، وقد تقدم للقاضي الفاضل كلام في تفضيل مصر، وذم الشام في أوائل أخبار سنة أربع وسبعين، وله من كتاب آخر: «دعونا من بعلبك البلد الأعسر، ومن رأس عينها الضيقة المحجر، ومن ثلجها الذي تنفس الجبال بعهنه، ومن بردها الذي لا يشفع الجمر عنده إلا باذنه، وعودوا الى ما ترفتم فيه ومساكنكم فإنها قد علتها وحشة لقطينها، فسألت مطالع دسوتها عن أقهار سلاطينها واذكروا النيل الذي وفي لكم في هذه السنة بنقصه، وأبى أن يكون ماؤه ذخيرة لغير جودكم الذي أحصاه الله ولم نحصه، واذكروا فيضها وماء طوبتها فقد كان يقيم الحجة على ثلج الشام ووخه، ويتغلغل برده فيسري الى قلب العليل، وكان جاريا على غير طريق فمه، واذكروا صحة هوائها وتعصبه لأيامكم حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحة أجسامكم».

ومن كتاب آخر: «وأما أحوالي فإنني لم أزل ملتاثا منذ دخلت دمشق لتغير مائها وهوائها وأبنيتها وأبنائها وأوديتها وأدواتها، وقرأها وقرنائها، ومن لي بمصر فيني أقنع بما تنبته أرضها من بقلها وقثائها واتباع بردى (٢٨) وما عساه بشرية من مائها، وامتطي متن السيف في هجر سوادها وسودائها، فالطلل هائل ولاطائل، وما كنا نسمع به من تلك

الفضائل متضائل، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فهي بلاد تستجدي ولا تجدي، وفعل المال بها لازم التعدي».

وقال العماد: «هذا زين الدين علي بن نجا الواعظ، من أهل دمشق ومن ساكني مصر، وهو ذو لهجة في الوعظ فصيحة، وبهجة للفضل صبيحة، وقبول من القلوب، وفصول في فصل الخطاب للخطوب، وقد تأثت وتأثل، وقبل وأقبل، وأحسن السلطان إليه بالأعطيات، والاقطاعات وأجل وأعطاه وأجزل، وأتم له مراده وأكمل، وكان السلطان يستشير، ويروقه تدييره، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته، ووصل في هذه السنة منه كتاب إلى السلطان يشوقه إلى مصر ونيلها ونعيمها، وسلسيلها ودار ملكها ودارة فلکها، وبحرها وخليجها، ونشرها وأريجها ومقسمها ومقياسها وإيناس ناسها، وقصور معزها، ومنازل عزها، وجيزتها وجزيرتها، وخيرتها وجيرتها، وبركتها وبركتها، وعدوتها وعدويتها وتعلق القلوب بقلوبها، واستلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومرتقى الهرمين، وروضة جناها، وجنة رضوانها، ومساجدها وجوامعها ومشاهدها، ومرابعها ونواظر بساينها، ومناظر ميادينها وساحات سواحلها، وآيات فضائلها، ورحاب شوارعها، وحلاب مشارعها، وشروق عربيتها، وغروب شريقيتها، وطيب طويتها، ومسار مسراها، ومجرى فلکها ومرساها وعجائب بناها، وغرائب مناها، وبيان عيانها بلسان بلسانها، وكياسة أخلاقها ونفاسة أعلامها، وشتاؤها في الفضل ربيع نصير، وغبارها عبير، وماؤها كوثرها وتراها عنبرها».

ثم وصف العماد غير ذلك، ثم قال: وذكر زين الدين الواعظ في كتابه مادل به على فضيلة تلك الديار من الآيات والأخبار، والآداب والآثار، ولو ظفرت به لأوردته بلفظه وجلوته بوعظه، لكنني فقدته فعربت معانيه وأحكمت مبانيه.

قال: فكتبت إلى زين الدين الواعظ في جوابه عن السلطان: «عرفنا

طيب الديار المصرية، ورقة هوائها، ونحن نسلم له المسألة في طيها وتوفير نصيها، ورقة نسيها، ورائق نسيها، لكن لا ريب أن الشام أفضل وإن أجز ساكنه أجزل، وإن القلوب إلى قلبه أميل، وإن الزلال البارد به أعل وأنهل، وإن الهواء في صيفه وشتائه أعدل وإن الزهر به أشب، والنبت به أكهل، وإن الجمال فيه أكمل، والكمال فيه أجمل، وأن القلوب به أروح، والروح به أقبل ودمشق عقيلته المشوطة، وعقلته المنشوطة، وحديقته الناضرة، وحديقته الناظرة، وهي عين انسانيه، بل انسان عينه، وصير في نقوده في عين نضاره ولجينه، فمستامها مستهام، وماعلى محبها ملام، ومافي ربوتها ريبه، وفي كل حبة حبيبه، ولكل شائب من نورها شبيبه، وعلى كل ورقة ورقا، وعلى كل معانقه من قدود البانات عنقا، وشادياتها على الأعواد تطري وتطرب، وساجعاتها بالأوراد تعجم وتعرب، وجميع مافي سورة الرحمن، ونحن نتلو عليه آلاءها إلى أن يرجع إلينا فتتلو على منكرها (فبأي آلاء ربكما تكذبان)^(٢٩) وقد تمسكنا بالآية والسنة والإجماع، وغنينا بهذه الأدلة عن الإختراع والإبتداع، أما أقسم الله تعالى بدمشق في قوله: (والتين والزيتون)^(٣٠) والقسم من الله لها أدل دليل على فضلها المصون، أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشام خيرة الله من أرضه يسوق إليها خيرته من عباده»^(٣١) هذا أوضح برهان قاطع على أنه خير بلاده، أما الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على اختيار السكنى بالشام، أما فتح دمشق بكر الاسلام، وما ننكر أن الله تعالى ذكر مصر وسأها أرضا فما الذكر والتسمية في جنب فضيلة القسم، ولا الإخبار عنها دليلا على الكرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصديق إليها عليه الصلاة والسلام، ثم المقام بالشام أقرب للرباط وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكر السائرة من سائر الجهات للجهاد، وأين قطوب المقطب من سناء سنير، وأين ذرى منف المشرف من ذروة الشرف المنيف المنير، وأين الهرم الهرم من الحرم المحترم، وبينها فرق مابين الفرق والقدم، وهل للنيل مع طول نيله،

وطول ذيله، واستطالة سيله، برد بردى في نقع الغليل ونقع العليل،
ومالذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وسيل هذا السلسيل، وإذا فاخرنا
بالجامع وقبة النسر ظهر عند ذلك قصر القصر، على أن باب الفراديس
في الحقيقة باب النصر، ومارأس الطابية كباب الجابية، ولو كان لناسها
باناس لم يحتاجوا إلى قياس المقياس، ونحن لانجفو الوطن كما جفاه،
ولانأبى فضله كما أباه، وحب الوطن من الإيمان، ومع هذا فلا ننكر أن
مصر إقليم عظيم الشأن، وإن مغلها كثير، وماءها غزير، وأن عدها ندير،
وإن ساكنها ملك أو أمير، ولكن نقول كما قال المجلس السامي الاجلي
الفاضلي اسماه الله: إن دمشق تصلح أن تكون بستانا لمصر، ولاشك أن
أحسن ما في البلاد البستان، وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم
يرض أن يكون المساوي، حتى شرع في عد المساوي، ولعله يرجع إلى
الحق ويعيد سعة اسعاده ووفاقه إلى الأوفق إن شاء الله.

قلت: وقد قيل في وصف دمشق ومدحها شيء كثير، من النظم والنثر
واشتمل ما جمعته في أول تاريخ دمشق على قطعة كبيرة حسنة، من ذلك
ما وصف شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله في مقامة
تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كلا من البلدين بما يليق
به، وكان أول ما قدم دمشق يذمها في مكاتباته إلى مصر نظما ونثرا حبا
للوطن، ثم لما استقر فيها قرت عينه وفضلها في بعض مكاتباته، وقد
ذكرت كل ذلك في جزء مستقل به، وأما القاضي الفاضل رحمه الله فقد
قال في بعض مكاتباته إلى مصر: «ومما أسر به قلبه الكريم أنني وصلت
إلى دمشق المحروسة حين شرد بردها، وورد وردها، واخضر نبتها، وحسن
نعتها، وصفا ماؤها وصفا دواؤها، وتغنت أطيارها، وتبسمت أزهارها،
وافتر زهر اقحوانها، فحكى ثغور غزلانها، ومالت قضب بانها، فاثنت
تنني، ولدانها، فلما قربت من بساتينها ولاح لي فيح ميادينها، وتوسطت
جنه وادياها، ورأيت ما أبدعه الله فيها، سمعت عند ذلك حماما يغرد،
وهزارا يشدو ويردد، وقمر يا ينوح وبلبلا بأشجانه يبوح، فوقفت أثني

على باربيها، وأكاد بالدمع أباربيها، أسفا على أيام خلت بعدما حلت منها
وفيها، فعند ذلك عاينت روعي وزال أنيني ونوحي:
وكانت النفس قد ماتت بغصتها

فعند ذلك عادت روحها فيها

قلت: ووصف أيضا دمشق من أهل مصر من يرجع إلى قوله ويرضى
بحكمه، لفضله وفصله، وهو الوزير العادي صفى الدين أبو محمد عبد
الله بن علي المعروف بابن شكر في كتاب البصائر له فقال: «دمشق نزهة
الأبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، ومغرس الأشجار، ومعرس
السفار، ومعبد الأبرار المستغفرين بالأسحار، ظلها الممدود، ومقامها
المحمود، وماؤها المسكوب وعيها المسلوب، ومحاسنها المجموعة،
وفضائلها المروية المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكحتها الكثيرة
لامقطوعة ولاممنوعة، ونسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، وماؤها
السلسيل، وقد شرفها الله تعالى بالذكر في كتابه، وأوى إليها من اختار
من أنبيائه وأحبابه، فقال تعالى في كتابه المين: (وأويناهما إلى ربوة ذات
قرار ومعين)^(٣٢) ولم تزل مقر البركات ومعادن النبوات، ومنزل الرسالات،
ومسكن أرباب الكرامات، وورد في تفضيل بقعتها من الأخبار مالا يشك
في صحة اسناده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشام صفوة
الله من بلاده، فيها خيرة الله من عباده»، ونبه في خبر آخر على عظم
فضله، فقال: «ان الله تكفل لي بالشام وأهله»^(٣٢) وبارك في سكنائها
ورغب في سكنائها أهل الاسلام بقوله عليه السلام: «البركة في الشام»
وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد إلى أنها ارم ذات العماد التي
لم يخلق مثلها في البلاد^(٣٣).

قال العماد: ولما أنعم الله تعالى علي بإسكاني في فنائها، وتخييري لبنائها
ونزهتي في أفنائها، وأنسي بانسانها، مضيت إلى جامعها الجامع، وشفعت

بادراك البصر منه ادراك المسامع فلما وصلت، وحللت الحبي لديه، رأيت مرأى صغر الرواية، ورونقا حصل من الحسن على النهاية، ونورا يجلو الأبصار، وجمعا يفضل على جموع الأمصار، وعبادة موصولة على الاستمرار، وقرآنا في آناء الليل وأطراف النهار، ومنقطعين إليه قد انفقوا في الاعتكاف به نفائس الاعمار، والبركات تحف بجوانبه، والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه، والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وتروى، والمصاحف بين أيدي التالين تنشر فلا تطوى، واعلام البر فيه ظاهرة فلا تخفى ولا تزوى، والخلق منقسمون إلى خلق، قد نبذ أهلها ماوراءهم من العلق، والاسلام فيه فاش، والجهل به متلاش، وهو مما بناه الاولون لعبادتهم، وجعلوه ذخرا لأخرتهم، وما برح معبدا لكل ملة، اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الاسلام هيكلا وقبلة، وهو بيت المتقين، وسوق المتصدقين، ليله للمتجهدين، ونهاره للعلماء المجتهدين».

قال: «وعاشرت أهلها وباشرتهم، ثم كاثرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادة أدباء، وعلما نجباء، ورأيتهم يتناظرون في الفقه مناظرة الوالد مع ولده، ويقفون عند كتاب الله، فلا يعدلون عن واضح جده، ويفسرونه عن علم واستبصار، ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار، ويتبعون ماوردت به ثقة الآثار، وعامتهم مشغولون بالمعاش، اخذون من زيتهم عند كل مسجد أفضل الرياش، لا يخوضون في لغط ولا إكثار، ولا يجتمعون على فساد نية في مقيم ولا بعيد الدار».

قال: «فاقمت منها في أشرف البلدان، التي هي انموذج الجنان، وعنوان الدار التي خازنها رضوان، والقلوب فيها عند ذكر الله حاضرة، والنفوس بالخير دون الشر أمرة».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كانت إربل ومايجري معها من البلاد والقلاع من ولايات الموصل غير معدودة في ولاية السلطان، فأراد صاحب إربل أن ينفرد عنه ويستبد بالبلاد فاعتزى الى السلطان وكاتبه وطلب منه منشورا ببلاده فكتبه له وفيه: «إن الله لما مكن لنا في الأرض، ووقفنا في اعزاز الحق، واطهاره لاداء الفرض، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله، ونقبل على إعلاء كلمة الدين وننصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام إلى غزو أعدائه، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه على استئزال نصر من سمائه، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هذه الفضيلة، يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة، ومن أخلد إلى الارض واتبع هواه، وأعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنياه، فإن أناب قبلناه وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه» وتفصيل ماكتب في منشوره: إربل وقلعتها وأعمالها جميع ماقطعه الزابي الكبير: شهرزور وأعمالها معايش بيت قفجاق، معايش بيت القرابي، الدشت والزرزارية.

قال: وفي هذه السنة مستهل جمادى الآخرة توفي صاحب ماردين، وهو قطب الدين ايلغازي بن البى بن تمرش بن ايلغازي بن أرتق، والأمراء الأرتقية هم الذين رتقوا فتوق الاسلام أولا، وكانوا يتولون بيت المقدس وحموه من الافرنج قبل المصريين، وإنما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المصريين، فبقي الساحل كله مع أهل الشرك فحمت الأرتقية ديار بكر وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثوا ديار بكر كابرا عن كابر إلى أن انتهى إلى هذا قطب الدين أعمال ميفارقين وماردين، فلما مات بقيت على ولده وله عشر سنين، وانتهى إلى ابن عمه

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سليمان بن أرتق حصن كيفا وخزرت، والبلاد التي تناسبها، وأضاف السلطان إليه آمد، وقد كان قطب الدين أولا على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابة، ثم أذعن للسلطان ودخل تحت طاعته.

قلت: وفي هذه السنة أيضا توفي خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن ابن علي، وولي ابنه يعقوب.

قال القاضي ابن شداد: وبعد عود السلطان من حصار الكرك وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهما، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان، وأعطاه دستورا فسار إلى بلاده ووصلت رسل زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز، وانهم نهبوا وحرقوا، وأنه نصر عليهم وكسرهم، فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد، وتقدم إلى العساكر فتبعته وسار على طريق المغار وبيوس البقاع إلى بعلبك، ومرض العماد فانقطع بها، وسار السلطان إلى حمص، ثم حماة فأقام بها إلى أن شفي العماد، ولحقه بها، وكان الأجل الفاضل بدمشق، فأرسل الحكيم ابن المطران واسمه أسعد بن الياس إلى العماد ببعلك لما سمع بمرضه، فسار من دمشق إلى بعلبك في يوم وليلة، وعمل معه عمل من طب لمن حب، فبرىء بعون الله تعالى، فرجع إلى دمشق، فلما استقام مزاجه، رحل إلى السلطان فوافقه بحماة.

ودخلت

سنة احدى وثمانين

قال العماد: والسلطان مخيم بظاهر حماة، فسار إلى حلب وتلقاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر فخرج منها في صفر لقصص الموصل، فسار وقطع الفرات، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها، وكان السلطان قد سير إلى معاقل الفرات وقلاعها، ونواحيه وضياعه، وأمر أهلها بعمارة كل سفينة في الفرات وزورق ومركب، وجمعها من كل مشرق ومغرب، ثم وصل إلى حران، وفيها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين يوسف صاحب إربل، وقد كان أول من دخل في خدمة السلطان، أول ما قصد تلك البلاد في المرة الأولى، واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الأطراف في الانتماء إلى السلطان، وحضر معه حصار عدة بلاد كالموصل وسنجار وأمد وحلب، وأظهر من المودة فوق ما كان في الحساب، وكان كثير الحث للسلطان على المسير إلى الموصل، هذه المرة برسوله وكتابه وقال رسوله للسلطان إن مظفر الدين إذا عبرتم الفرات يستدرك كل مافات، ويقوم بكل ما يحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، وتقدم يوم الوصول إلى حران خمسين ألف دينار، وكتب خطه بذلك، فلما وصل السلطان إلى حران لم ير منه ما التزمه الرسول، فارتاب به وظن أنه مال مع المواصلة، ووشت الأعداء فيه بذلك وأن نيته قد تغيرت، فحلف للسلطان أنه لم يتغير وأن ما التزمه الرسول لم يكن بأمره وهو ابن ماهان، فانعزل عنده عن مرتبته وهان، فقبض السلطان على مظفر الدين ليتبين أمره، وشاور فيه أصحابه فأشار بعضهم باتلافه، وبعضهم باستبقائه واستتلافه فعفا السلطان عنه على أن يسلم إليه قلعتي الرها وحران، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه، ثم أعيدت إليه القلعتان في آخر السنة لما رأى السلطان من حركاته المستحسنة.

قال القاضي ابن شداد: وسار السلطان حتى أتى حران على طريق البيرة والتقاء مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرم، وكان قد وصل إليه عز الدين بن عبد السلام، يعني، الموصلية رسولا واسمه ابراهيم بن علي ابن عبد السلام، ويكنى بأبي الخليل، فلقية بحماه يعتذر مما جرى، فأعطاه دستورا بعد أن أكرمه، وسار من غير غرض.

قلت: وصحب ابن عبد السلام في هذه السفارة من الموصل عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة، فمدح السلطان بقصيدة أولها:
على الحي من وادي الغضا إذ تفرقوا

سلام مشوق قد براه التشوق

فلما بلغ مديحها إلى قوله:
وقالت لي الأمال إن كنت لاحقاً

بأبناء أيوب فأنت الموفق

قال له السلطان: لقد وقفت وأجازه جائزة سنية.

ثم قال القاضي: وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، ووصل السلطان حران في الثاني والعشرين من صفر، وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين لشيء كان جرى منه، وحديث كان بلغه عنه رسوله، ولم يقف عليه وأنكره وأخذ منه حران والرها، ثم أقام في الاعتقال تأديبا له إلى مستهل ربيع الأول، ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، وأعادته إلى قانونه في الاحترام والاكرام، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول من حران إلى رأس عين، ووصله في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان يخبره ان ملوك

الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل، وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين ابن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين، فالتقاهم السلطان واحترمهم ثم رحل من دنيسر نحو الموصل، حتى نزل بموضع يعرف بالاسماعيليات، فرتب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين، فطلب من السلطان دستورا طمعا في ملك أخيه، فأعطاه دستورا.

وقال العماد: خرج السلطان من حران في ربيع الأول فمر على رأس عين ودارا، فخرج أميرها بأصحابه في الخدمة، وقدم عماد الدين أبو بكر ابن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وآمد نيابه عن أخيه نور الدين فإنه كان مريضا، ثم رحل إلى نصيبين، وتنكب طريق الدولعية فنزل على بلد آخر ربيع الأول، ثم توجه إلى الموصل وخيم على الاسماعيليات، وقدم على السلطان زين الدين صاحب إربل، وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قبل الاسماعيليات ارسال ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل، فإن أهلها مواصلون الأعاجم، وخاطبون لسلطانهم القاسم، وناقشوا اسمه في الدنانير والدرهم، وانهم يتعززون بالبهلوان، ويعجزون إلا عن الطاعة والإذعان، وانهم يرسلون الى الفرنج ويقوون نفوسهم على قصد الثغور، وتفريق الجمهور، وأنه ما جاء طمعا في استضافة ملك، ولا استزادة سلك، ولا قلع بيت قديم، ولا قطع اصل كريم، وإنما مقصوده الاصلي ومطلوبه الكلي ردهم إلى طاعة الإمام، ونصرة الاسلام، وكشف ما اعتادوه واعتودوه من الظلم والظلام، وكظمهم عن استحلال الحرام، وقطعهم عن مواصلة الاعجام، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار، وصلة الأرحام، فهذا صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي صاحب الموصل ولي عهد أبيه، لم يرع فيه ذمة أخيه، وأبعده عما استحقه بالارث

والتولية، وحرمة ما يستوجبه من التربية والتلبية، وأخاف حرمة وقطع رحمه، ولو تمكن منه لأطاح دمه، ولولا خوفه من جانبه وتوقيه من ذيب عقاربه لما التجأ إلى هذا الجانب، ولما اختار الأجانب على الأقارب، وهذا صاحب إربل جار الموصل أبوه زين الدين علي هو الذي حفظ بيتهم، وخلف في إحيائهم ميتهم، وهذا ولده في جوارهم مسكوه بجورهم، وحديث صاحب الحديثة في حادثه لا تخفى، وعين من بتكرت من مخافتهم وأفتهم لا تكري.

قلت: وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان إلى الديوان: «وكان قد تمحيز إلى الخادم في وقت حركته صاحب تكريت والحديثة وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره، ولم يستأذن في ذلك استئذانا مخصصا إلا لمحلهم من جوار دار الخلافة، ولأنهما مما يرى الخادم إضافته إلى ما يجري في خاص الديوان العزيز مع غيرهما مما يجري مجراهما في القرب من الجوار، والدخول في زمام شرف تلك الدار، فإن أذن له استثناهما في صلح إن تم معهم أوحاهما مع مباينيه إن اختار المشار اليهم البقاء عليها، وهذا برد شرف قد أعوزه علمه، وتاج إذا أسلمه الحظ الشريف نظم الفخار ومنتظمه».

وفي كتاب آخر: «وما كنا بشهادة الله في قتال المذكورين إلا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه».

وأصبح العماد الرسول قصيدة مدح بها الصاحب مجد الدين أبا الفضل أولها:

قضى الوجد لي أن لأفئق من الوجد

فياضلة اللاحى إذا ظن أن يهدي

محبكم جلد على كل حادث
ولكن على هجرانكم ليس بالجلد
بيغداد حطوار حلكم ليخصكم
أبو الفضل مجد الدين بالفضل والمجد
رآه الإمام الناصر الدين ناصرا
فحاول تعويلا على نجده المجدى

ومنها:

إليك صلاح الدين الجأ أمره
فحط ركنه والعقد بالشد والشد
مليك على حرب العدو ومصمم
وما زال فيه غالب الجد والجند
تساور أفواه الجراح رماحه
مساورة الأميال للأعين الرممد
يمل المنايا الحمر بالكفر مجريا
دم الأصفر الرومي بالأبيض الهندي
ومن لأمر المؤمنين كيوسف
فتى في مراضيه بمهجته يفدي

قال: وشرع السلطان في إقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد، وسير
الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري، ومعه
الأمراء من قبيلته والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية، وجماعة من الأمراء
الحميدية إلى العقر وأعمالها لاستفتاح قلاعها، واستغلال ضياعها،
ونصب الجسر، وملك الأمر وعبره مظفر الدين صاحب حران وغيره من
الأمراء، وخيموا بالجانب الغربي وكان الجر إذ ذاك شديدا، فأمر
السلطان بالصبر عن القتال إلى أن يطيب الزمان، وأهل الموصل في
الحصار، وأشير عليه بتحويل دجلة وكان ماؤها قد قل بطريق ذكره خير
بها زعيم أنه يمكن سد دجلة وسكرها وبتق فرضة أخرى وكسرهما،

ونقلها وتحويلها إلى دجلة نينوي، وتعطش الموصل إذا الماء عنها انزوى، وعرض ذلك على رأي الفقيه العالم فخر الدين أبي شجاع ابن الدهان البغدادي، وكان مهندس زمانه، وإنسان عين الفضل وعين انسانيه، وكان منذ عهد قديم سكن الموصل في ظل كبير من أصحاب زين الدين علي، ولما سمع بكرم السلطان تفيماً بظلمه، وتعرف إلى فضله، فصدق المشير بذلك وقال: هذا ممكن ولا يتعذر، ويتيسر ولا يتعسر، ومن كتاب عمادي إلى بغداد: « وذكر المهندسون أهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحيث يضر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضرر في تضيق ولا نزال ».

فصل

فيما فعل السلطان في أمر خلاط وميافارقين وغيرهما من

البلاد

قال العماد: ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط، فتحول إليها العزم، وترجع بها الحزم، وكان ورود خبر موته في العشرين من ربيع الآخر، وكان موته في التاسع منه، ولم يخلف ولدا ولا ذا قرابة يكون خلفا له فيها، ووردت كتب الأولياء من أهل بدليس وغيرها إلى السلطان يخبطونه لها، وهم خائفون من العجم أن يتولوها، فاختلف الناس على السلطان فمن مشير بالإقامة إلى انفصال أمر الموصل، ومن مشير بالمسير إلى بلاد الأرمن فإن الموصل غير فائتة، من قائل بانقسام العسكر في الجهتين فترجع رأي السلطان على المسير إليها، فكتب إلى الخليفة يطلب منه كتاب تقليد ببلاد الأرمن وديار بكر والموصل، فجاءه بعد فتح ميافارقين مثال شريف بتقليده النظر في أمر ديار بكر والنظر في مصالح أيتام ملوكها، ثم رحل السلطان عن الموصل في أواخر شهر ربيع الآخر، وقدم في مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه، ومظفر الدين صاحب حران وأمرهما أن يسيرا إلى خلاط من أقرب الطرق، فلما وصلا وجدا سيف الدين بكتمر أحد مماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها، وتغلب عليها، وجاء بهلوان في عساكر الشرق وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن ايلدكز متولي تلك البلاد، فنزل من الجانب الآخر، وكان وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يظهر للسلطان المودة والمناصحة، وهو على خلاف ذلك، وكتب إلى ناصر الدين أن يقيم على القرب، فهو اشد للارهاب والرعب، ففعل ولو خلاه لسبق إليها، وقيل إن هذا الوزير ايضا أنفذ الى بهلوان، وأمره بالاتيان، وأظهر له المودة والاحسان، ولما تمادى الزمان، وقرب منها بهلوان راسله بكتمر وحمل

إليه مع ابنته زوجة شاه أرمن الأموال التي أودعت المخزن، وندب السلطان إليها الفقيه ضياء الدين عيسى، فدخلها وتخللها وتأملها وتكلم مع الوزير وشاوره فأحال الحال على البهلوان، وأنه جاء ليتملك المكان، ولو استعجلتم لسهل ماصعب الآن وهان، ثم جرت مراسلة بين السلطان والبهلوان، وانفصل الأمر كأنه ماكان.

وقال القاضي ابن شداد: وفي ربيع الآخر توفي صاحب خلاط، وولي بعده غلام يدعى بكتمر، وهو الذي كان وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجار، فعدل وأحسن إلى أهل خلاط، وكان متصونا في طريقته، فأطاعه الناس ومالوا إليه، ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع، فسار نحوه البهلوان بن ايلدكز، فلما بلغه ذلك سير إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط إليه، واندرجه في جملته، فطمع السلطان بخلاط، وارتحل عن الموصل متوجها نحوه وسير إليه الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها، فوصلت الرسل، وبهلوان قد قارب البلاد جدا، فخوف بهلوان من السلطان وأشعره أنه إن قصده سلم البلاد إلى السلطان، فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه بنت لهم وولاه، وأعاد البلاد إليه واعتذر إلى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة، وكان السلطان قد نزل على ميفارقين فحاصرها، وقتلها قتالا عظيما، ونصب عليها مجانيق وملكها في آخر جمادى الأولى.

قال العماد: واستشعر ملوك ديار بكر من حركة السلطان، وكان قد مات صاحب ماردين كما تقدم، وبقيت الولاية لولده الكبير وله عشر سنين، وكان القائم بتدبير ملكه نظام الدين بن البقش، ومات أيضا صاحب آمد نور الدين محمد بن قرا أرسلان رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة، وتولى ابنه قطب الدين سكرمان، فاحترزوا من السلطان، وخافوا أن يسترد بلاد آمد منهم، فنفذ السلطان إليهم شمس الدين بن الفراش ليختبر حالهم في المحاربة والمسالمة، فوجدهم على الطاعة

مقيمين، وإليه راغبين، ومنه راهبين، ووصل السلطان في جمادى الأولى إلى ميفارقين، وكان دخلها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين يرنقش، واستعصى فيها على السلطان، فحاصره وقاتله، ثم رأى أن القتال يطول، فراسل أميرها الأسد، ورغبه في المودعة، ونهاه عن المقاطعة، وكان في المدينة خاتون ابنة قرا أرسلان، وهي زوجة قطب الدين صاحب ماردين الذي توفي، فأحال الأسد الأمر على الخاتون، فراسلها السلطان، ورغبها وضمن لها كل ما تطلبه منه، ووعداها أن يصاهر إليها، فما زال بها وبألسدحتى لانا، فقرر السلطان لها كل ما كان باسمها واسم خدامها، وطلبت حصن الهتاخ ليكون لها عشا للافراخ، وزوج السلطان ابنه معز الدين اسحاق بإحدى كرائمها، وأبرم العهد، وأحكم العقد، وسارع السلطان إلى نداء كل ما اقترحوه وفتحت ميفارقين، وأقبل صاحب آمد قطب الدين سكرمان بن نور الدين على صغر سنه إلى خدمة السلطان فأكرمه وأعادته إلى منصبه وكان معه وزيره قوام الدين أبو عبد الله محمد بن سماقة، وقتل غيلة في رمضان من هذه السنة كما سيأتي، ثم سار السلطان لقصده الموصل، وولى تلك الديار مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي، فنزل السلطان على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل في شعبان، وعزم على أنه يشقى في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء باقيات متعرضات للشفاعة فأكرمهن السلطان، ووعدهن بالاحسان، وقال: قد قبلت شفاعتكن، لكن لا بد من مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم، واستقر الأمر على ان يكون عماد الدين زنكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا في اصلاح ذات البين، وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين، فإنه كانت شفاعته سابقة ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين، وتعطف وتلطف أجلهن واجلالهن، وأتى بالكرامة بما يليق بأمثالهن، وكن ظنن أنه لا يقيم لحرمة قصدهن، ولا يصدق ظنونهن، وأنه لا يعرف حقوقهن، ويقضي بمكارمه ديونهن، ولا يشتغل بأمر لا يؤذن بمرادهن، فدخلن البلد متلومات متذمات، وبلطف الله لانا ذات معتصمات.

فصل

في انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان المرضة المشهورة بحران

قال العماد: وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن، وحفظه واشتغل بالصيام، والتقليل من الطعام، فظهر انزعاجه، وتغير مزاجه وتعذر علاجه، وطال مرضه، وندم على رد السفراء، وسير إلى عماد الدين صاحب سنجار في انفاذ رسله ليوعز بكل ما يعود بسؤله، فوصل رسوله شمس الدين بن الكافي، وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما وراء الزابين من البوازيج والرسناق وبلد القرابلية وبنى قفجاق، فدخل شمس الدين بن الكافي وشمس الدين قاضي العسكر من جانبنا إلى الموصل لأخذ العهد على هذا الملتزم، ورحل السلطان قبل عيد الفطر بيوم وهو من بحر بحرانه في عوم، وخيمنا على نصيين في شوال، ولم نترقب عود الرسول بنجاز الأشغال بل كان الارتحال على الارتحال، ثم استمر الصلح وصلح الأمر، وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقية، وفي ديار بكر أيضا والولايات الأرتقية، وضرب باسمه الدينار والدرهم، وانحل الاشكال وكشف المبهم.

وكتب العماد عن السلطان كتابا إلى أخيه سيف الاسلام باليمن بشرح الحال وفيه: « ونزل صاحب الموصل عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور ومعاقلها وأعمالها، وولاية بنى قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعانة، وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا، وإن يطلق المظالم، ولا يرتكب المآثم، وقد حصل لنا من صاحب

الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة، وعمت الهيبة والرهبنة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع».

سال: ونفذ السلطان إلى شهرزور مملوكة مجاهد الدين أياز سربك فتملاً بها وتملك، ونال المقاصد وأدرك، وكان التركمان الايوانية مستولية بها فشتت شملها وندب للنظر في تلك الأعمال القاضي شمس الدين بن الفراش، وأقطع البوازيج لبعض خواصه الممالك وسير إلى البلاد نوابه، ورتب فيها لإقامة سنن العدل والاحسان أصحابه، ووقف ضيعة في البوازيج تعرف بنا فيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد.

وقال القاضي ابن شداد: لما أيس السلطان من أمر خلاط عاد إلى الموصل، فنزل بعيداً عنها وهي الدفعة الثالثة بسوضع يقال له كفر زمار، وكان الحر شديداً فأقام مدة، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة واجتمع به وأعادته إلى بلده، ومرض السلطان بكفر زمار مرضاً شديداً. خاف من غائلته فرحل طالب حران وهو مريض، وكان يتجلد ولم يركب في محفه، ووصل حران شديداً المرض، وبلغ إلى غاية الضعف وأيس منه، وأرجف بموته، ووصل إليه أخوه العادل من حلب، ومعه الأطباء.

قال: وكان سبب صلحه مع المواصلة أن عز الدين صاحب الموصل سيري إلى الخليفة يستنجد به، فلم يحصل منه زبده، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبده، فلما وصلت من بغداد وأديت جواب الرسالة أيس من نجده، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لذلك الأمر وجهاء الدين الريب وفوض الي أمر النسخة، وقالوا: أمض ما يعسل جهدكم وطاقتكم إليه، فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلهم أيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة، فاحترمنا احتراماً عظيماً، وجلس لنا، وكان

أول جلوسه من مرضه وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهريين أخذها من سنجرشاه وأعطاهها المواصلة، وحلفته يمينا تامة، وحلفت أخاه العادل، ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه، وسرنا عنه، وهو بحران وقد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص، وكانت وفاته يوم عرفة، ونحن في العسكر، وجلس العادل في العزاء، وفي تلك الأيام كانت وقعة التركمان والأكراد، وقتل بينهم خلق عظيم، وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن ايلدكز وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة.

قال العماد: وأقام السلطان على نصيبين أياما قلائل، ثم رحل إلى حران فألقينا بها عصا النوى، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى، متواصلة الجوى، والفضل خائف من كساده، آسف على عتاده، مشفق من انخفاض قدره، وانقراض عصره، والسماح يقول هذا أوان كسوف سبائي، ونضوب مائي، والدين يندب، والمملك يصخب، والأيدي إلى الله تعالى مرفوعة، والنيات بالانخلاص مشفوعة، والكفر في أراجيف، والقدر في تصاريف والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله، وكلما بان ضعفه، قوي على الله توكله، وأنا ملازمه ليلا ونهارا سرا وجهارا، وهو يملئ علي في كل وقت وصاياه، ويفرق بقلمه على عفاته عطاياه، ومن جملة ذلك أنه اشتدت به الحال ليلة أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعدم الرجاء، فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون إلى بابه والقاصدون المرتجون جنبي جنابه وضجوا ضجة ارتجت منها الدهماء، ولانت لسماعها الصخرة الصماء، فسأل عن ذلك، فقيل هؤلاء وفدك قد اجتمعوا على بابك، متأسفين على مانابك، فدعاني وأمرني بكتب أسمائهم، وتفريق ما اجتمع في خزانته من المال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكنا نظن أن مابه من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك الساحة راحه، واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه، وكان خلقه أحسن ماكان في حال الصحة، يخاطبنا بسجاياه

السهلة السمحة، ولا يخلو مجلسه من ذوي فضل، وأولي نباهة ونبل يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارة في أحكام شرعية ومسائل فقيهة، وأونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في أحاديث الأجواد وشيخ الأجداد، ودفمة في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب والاستعداد، وينذر أنه إن خلصه الله من نبوة هذه النبوة، وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصافية الحلوة، اشتغل بفتح البيت المقدس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يترك شيمة الجود والساحة بالموجود، والوفاء بالعفود، والمحافظة على العهود، وانجاز الموعد، قال: وربما استروح في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لإشارة الأطباء لأجل التفريج والامتع، ولقد كان ذلك المرض محيضا من الله للذنوب وتنزيها، وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبهها.

قال: ولما سمع العادل في حلب بمرض أخيه السلطان، ووصوله إلى حران، بادر بالوصول، وصادف وقت القبول، وقام بضبط الأمور وسياسة الجمهور، والجلوس في كل يوم في النوبتية السلطانية لتولي مصالح الرعية، وإقامة وظيفة السباط، والعمل في كل يوم بالاحتياط، والتصدي لكشف المظالم، وبتث المكارم، وتنفيذ ما يخرج من المراسم، ورفق كل خرق، ورتق كل فتق، وحفظ المهابة، والقيام عن السلطان في كل مهم يحسن النيابة، ولقد نفعا حضوره ورفعنا تدبيره فقد كنا على خوف من إرجاف يقوى، وانتشار خبر سوء لا يطوى، لاسيما إذا خرج الأطباء وقالوا: مافيه أمل، ولكل عمر أجل، فهناك ترى الناس يستشعرون، ويأبعاد ما يعز عليهم من أعلاقتهم ودوابهم يستظهرون، فزال بحضور العادل كل مخافة، وسلم الله برأفته من كل آفة، وكان الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتديا بمعاليه، مقتفيا لمراضيه، وكان من جملة وصاياه عند إشفائه، وإرجاء ترجي شفاؤه، إن أدركني الأجل المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبا بكر وعمر وعثمان وعليها،

وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليا، فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين ابن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل، ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقي الدين في الشام ومصر المعول، وأقام العادل إلى أن وضح المزاج، وصح المنهاج، وطابت القلوب، وغابت الكرب، ثم وصل مع أخيه إلى حلب وتم معه إلى حمص ودمشق، وهب له نسيم مصر فاستجد إلى نشره النشق، وسيأتي ذكر مضيه إلى مصر مع الملك العزيز في سنة اثنتين وثمانين، ووصل الملك الأفضل من مصر بعده الملك المظفر تقي الدين.

قال العماد: وكانت صدقاته الراتبه دارة، وبالأبرار بارة، على أن جوده مستوعب للموجود، ولا يترك فضلا للوفود، ولما مرض وعرض له من الام ماعرض قال لي: أكتب إلى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية ان يتصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للحمل بما نص على قدره في التعيين، فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب، ودعا بالصلاحات من الله لدعائه مجيب، فدفع بالصدقة البلاء، ورفع بأصدق الولاء، ونظر الله إلى النيات، وأسنى سنا منته السنيات، ومن جملة تلك الصدقات أنه أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق الصفي بن القابض أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت ما عنده غير دنانير مصرية، فقال يتصدق بها مصرية، خمسة آلاف لنفوز من الثواب بأضعاف.

قال: ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام، فبنيت في أربعة أو خمسة أيام، وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصغيرين تورانشاه وملكشاه وأمهها، فأسكنهم فيها مدة مقامه، وسأها دار العافية للبرء فيها من سقامه، ثم أخلاها لمن ينزل بها ضيفا، وجعلها للآوين إليها وقفا، وبعدها اتصلت المواصلة بين السلطان والمواصلة، وأهدى السلطان لهم هدايا عظيمة لصاحب الموصل ولوالدته ولصاحبه ولابنه نور الدين رحمه الله، وقوم ماسبره إليهم ما يربي على عشرة آلاف دينار

سوى الخيل والطيب والشيء البديع والغريب، وجرى أمر المواصلة على السداد وتجهزوا في النصر الناصرية على ماسيأتي شرحه إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وانجذت الملائكة والروح وامتحت باليسر العسرة، وصحت بحطين الكسرة، وخص الله السلطان، بفضيلة فتح القدس، وقضى حاجاته التي كانت في النفس، وسيأتي إن شاء الله شرح كل فتح في موضعه وكيف أشرق سناء النصر من مطلعته.

وكتب الفاضل من دمشق إلى تقي الدين بمصر: «ان العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها، وفاضت أنوارها وأثارها، وولت العلة والحمد لله واطفئت نارها، وانجلي غبارها، وحمد شرارها، وماكانت إلا فلتة وقى الله شرها، وعظيمة كفى الاسلام أمرها، ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ما عندها صبرها، وماكان الله ليضيع الدعاء، وقد أخلصته القلوب، ولاليوقف الإجابة وإن سدت طريقها الذنوب، ولاليخلف وعد فرج وقد أيس الصاحب والمصحوب.

نعي زاد فيه الدهر ميا
فأصبح بعد رؤسائه نعيما
وما صدق النذير به لاني
رأيت الشمس تطلع والنجوم

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة، والعزمة ماضية جديدة، والنشاط إلى الجهاد والجنة مبسوط البساط، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج في سم الخياط».

ومن كتاب آخر: «الأحوال بالحضرة مستقيمة، والنعمة بالعافية عظيمة، والبقية الموهوبة من العمر الناصري كريمة القيمة، عرف وعرف

الناس شكرها، ولزم ولزموا قدرها، فسيوف الجهاد قد كادت تهتز في
أغمارها، وخيل الله قد كادت تنادي أهلها اركبي لميعاد طرادها،
والمسجد الاقصى مبشر تأنيسه بها استوحش منه من القرآن وتطهيره بما
استولى عليه من رجس الصليبان».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة ومن توفي بها من الأعيان

قال العماد: في هذه السنة توفيت الخاتون العصمية بدمشق في ذي القعدة، وهي عصمة الدين ابنة معين الدين أنر، وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، فلما توفي وخلفه السلطان بالشام في حفظ البلاد، ونصرة الاسلام، تزوج بها في سنة اثنتين وسبعين، وهي من أعف النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة، وأحرمهن، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، ولها أمر نافذ، ومعروف وصدقات، ورواتب للفقراء وادارات، بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورباطا.

قلت: وكلاهما ينسب إليها، فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذهب قرب الحمام السركسي، والرباط خارج باب النصر راكب على نهر باناس في أول الشرف القبلي، وأما مسجد خاتون في آخر الشرف القبلي من الغرب، فهو منسوب إلى خاتون أخرى قديمة تقدم ذكرها، وهي زمرد بنت جاولي أخت الملك دقاق لأمه، وزوج زنكي والد نور الدين رحمهم الله.

قال العماد: وذلك سوى وقوفها على معتقها وعوارفها وأيادها، وكان السلطان حينئذ بحران في بحر المرض وبحرانه، وعنف الألم وعنفوانه، فما أخبرناه بوفاتها خوفا على تزايد علته، وتوقد غلته، وهو يستدعي في كل يوم درجا ويكتب إليها كتابا طويلا، ويلقى على ضعفه من تعب الكتابة والفكرهما ثقيلًا، حتى سمع نعي ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه فنعيت إليه الخاتون، وقد تعدت عنه اليها المنون، وكانت وفاة ناصر الدين بحمص في تاسع ذي الحجة فجأة من غير مرض، وأجرى

السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ما كان لوالده، ومقابلته بأحسن عوائده.

قلت: وقبر الخاتون المذكور في التربة المنسوبة إليها بسفح جبل قاسيون قبلي المقبرة السركسية، وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عمه ست الشام بنت أيوب فدفنته في مقبرتها بمدريستها بالعوينة، فهو القبر الاوسط بين قبرها وقبر أخيها رحمهم الله، وكانت ست الشام كثيرة المعروف والبر والصدقات.

وكتب الفاضل إلى تقي الدين: «ورد الخبر عشية يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي الحجة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة، انتقل إلى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله، بمرض حاد أعجل من ملح البصر، ومرد النظر، فإننا لله وإنا إليه راجعون، وشاهد المملوك كتابا من ولده أسد الدين شيركوه أحياه الله إلى كاتب أبيه رحمه الله يقول فيه: وكتبته وقد صار في حفرتي، واستقر في قبره، فنسأل الله حسن المرجع والخلاص من هول المطلاع، والمعونة على ساعة هذا المصراع، ونشكر الله ثم نشكره ونذكره بأحسن ما يذكره به من يذكره، إذ وقى النفس الكريمة العالية الشريفة الناصرية، وقدم قبلها من لايسره التقدم بين يديه، وجعل الله أنفسنا فداها فإن تلك نعمة علينا، كما هي نعمة عليه، ولا فرق الله لهذا البيت شملا، ولا قضب له حبلا، وأعظم الله أجر الملك المظفر في ابن عمه، وامتنعه ببقاء عمه، وأعانته من مقابلة مقدور الله بهمه ودهمه، فليس إلا التسليم لما لا يستطيع الخلق له دفعا، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى، فإننا لانملك لها ضرا ولا نفعا، ولخوف المملوك ان يلتبس الخبر في مطالعه، ويحرف الكلم عن مواضعه عجل بالإنباء والإشعار، وسبق بما لايسره السبق به من هذه الأخبار».

قال العماد: وفيها في جمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكور سعد الدين مسعود بن أنر، ونحن قد فتحنا ميفارقين بها، ولقد كان من الأكارم الأكابر ومن ذوي المآثر والمفاخر، ومارأيت أحسن منه خلقا، وأزكى عرقا، ولم يزل في الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما، ولسفور فضائله ووفور فواضله، وجد شهامته، وحد صرامته، رغب السلطان وهو زوج أخته ان يكون هو أيضا زوج اخته فزوجه بالتي تزوجها مظفر الدين كوكبري بعده.

قلت: وهي ربيعة خاتون بنت أيوب عمرت إلى أن توفيت بدمشق بدار أبيها، وهي دار العقيقي في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستائة، وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتا، وكان يحترمها الملوك من أولاد أخوتها وأولادهم ويزورونها، في دارها.

قال: وفيها توفي الأمير عز الدين جاوي، وهو من أكابر الأمراء، وله مواقف حميدة في الهيجاء يحسن بلاؤه ويصدق غناؤه، ولما عدنا بعد فتح ميفارقين إلى الموصل طرقة البلاء في طريقه، قفز بحصانه على بعض السواقي فعثر به وانكسرت رجله، ثم عملت عليه قدمه، واشتد ألمه، وطال به سقمه، وانتقل إلى دمشق وتوفي بها في آخر هذه السنة، أو في سنة اثنتين وثمانين، ولقد فجع الاسلام منه بدمر مشيخ لدمار الكفر متيح.

قال: وفيها يوم الأربعاء ثامن رمضان قتل بآمد وزير ابن قرا أرسلان، وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سهاقة، قتلته مماليك مخدومه غيلة، وتمحلوا له في مباغتته بالقتل حيلة، وذلك أنه كان جالسا في ديوانه وایوانه متصدرا بمكانته في مكانه، وعنده الأكابر والأمثال، فدخل عليه واحد منهم، وقال له: الملك يدعوك وحدك فقام فدخل الدهليز وقد أغلق الباب الذي يصل منه إلى الأمير، وأغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه

ثم أخرجوا الصلاح من حبسه، وهو أحد الأمراء الأكابر، فقتل أولئك القاتلين، وكانوا به واثقين.

قال: وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلبي، وكان المدرس بها، وكان علامة زمانه في علمه، ونسيج وحده في نظمه، وقد أوردت من شعره في صدر الكتاب ما يستدل به على فضله، وإنه ممن عقم الدهر بمثله، واشتريت كتبه بأعلى الأثمان، ولكم أخرج بحره قلائد اللؤلؤ والمرجان.

قال: وفي هذه السنة رد السلطان قلعتي: الرها وحران إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين لتوفره في الخدمة على حفظ القوانين، وظهر منه كل ما حقق به الاستظهار، وأوجب لأمره الإمارات، ورغب في مصاهرة السلطان، وقلده طوق الامتنان.

قال: وكان السلطان قد سكنت نفسه للمقام وأراد ان تكون حركته بعد استكمال السكون، وعنده أولاده الأصاغر، والملك العزيز، والملك الظاهر بدمشق، والأفضل بمصر، فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين وخلا شبله أسد الدين بعده في العرين، وخيف على بلاده لصغر أولاده، واحتيج أيضا إلى الاحتياط على ما في خزائنه واستخراج دفائنه، وكذلك الخاتون خلفت أملاكها وتراثها، وأوقافا وأمتعة وأثاثا، لم يكن من الحركة بد، وقدم الكتب إلى البلاد بها صمم عليه عزمه، وأجرى به حكمه، وأمر بالاستعداد لترقب الاستدعاء ووصاهم في سائر المقاصد والأنحاء وكتب إلى ولد ناصر الدين: « قد عرفنا المصاب بوالده رحمه الله وعظم أجرنا وأجره فيه، وإن مضى لسبيله فولدنا أسد الدين أحياء الله نعم الخلف الصالح، وإن انتقل والده إلى دار البقاء فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء، والولايات والبلاد والمعازل باقية عليه، مسلمة إليه، مقررة في يديه، ومامضى من والده رحمه الله إلا عينه وولدنا قرة العيون، وبه

استقرار السكون، والحمد لله الذي جبر به كسر المصاب وألبسنا وإياه أثواب الثواب، فليشرح ولدنا صدره، ولا يشغل سره، ويعرف خواصة وأصحابه، وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرهما أنهم باقون على عادتهم»، وكان المندوب اليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، ولم يفارق الخدمة السلطانية في هذه السنة. قال: وفي هذه السنة لما كنا على ميافارقين، وقد فتحناها ورد للسلطان مثال شريف إمامي نصري بتفويض ولاية ماردين والحصن، وهو حصن كيفا والعلامة الشريفة الناصرية في ثاني سطره بالقلم الشريف «الناصر لدين الله».

قلت: وفيها في جمادى الأولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن عمر ابن أحمد المديني الأصبهاني محدث مشهور له تصانيف كثيرة، وفي هذه السنة توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو الثناء أبو محمد، محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي، المعروف بابن الصابوني، ودفن بسارية من القرافة ومولده ببغداد سنة خمسائة، وجد أبيه لأمه شيخ الاسلام أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، فبه عرف بابن الصابوني، وكان جده صحب السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه، ونسبته بالمحمودي اليه، ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، واجتمع به ونزل الى زيارته وسأله الاقامة بدمشق، فذكر له ان قصده زيارة الإمام الشافعي رضي الله عنه بمصر، فجهزه وسيره صحبة الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سار إلى ولده بمصر، وصار بينه وبينه صحبة أكيدة، ومحبة عظيمة، بحيث أنه ماكان يصبر عنه ساعة واحدة، وأقبل عليه، ولما ملك ولده الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكنه من العود إلى الشام، ووقف عليه وقفاً بالديار المصرية، وعلى عقبه وهو باق بأيديهم إلى الآن.

وقرأت بخط صلاح الدين رحمه الله ما كتبه في حقه إلى الملك العادل لما كان نائبه بمصر: «الأخ الأجل الملك العادل أدام الله دولته، غير خاف

عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصابوني، وأنه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين - يعني الخبوشاني - ماجرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله إلى موضع غيره، لتقطع الفتنة والخصومة بينهم بأمرنا إليه مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف من عنده من الفقهاء، والأخ الأجل الملك العادل يتقدم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار إليه، ومنع من يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات، وحسم مادة الشكوى منه ممن يتعدى عليه إن شاء الله تعالى».

وقرأت بخط الشيخ عمر الملاء الموصلي رحمه الله كتابا كتبه إلى ابن الصابوني هذا بشيراز يطلب منه فيه الدعاء، ويصف حاله أوله أخوه عمر بن محمد الملاء يقول فيه: «وبعد فالذي يتطلع إليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة، غارق في بحار النعماء، ومغمور في هواطل الآلاء غير أن أيدي البلوى بالنقم ترفعني تارة إلى مقام الصديقين، وتضعني تارة أخرى إلى مقامات المتخلفين ومع هذا فطلب النجاة لايفتر، والحركة في طلب الفوز لاتسكن، والعمر ينقضي بالعنا والمنى، وما أشبه حالي بحال القائل:

أمل في يومي إدراك المنى
حتى إذا ولي تمنيت غدا
لاوطرأقضي من الدنيا ولا
أفعل للأخرى فعال السعدا
والعمريمضي بين هاتين فلا
ضلالة خالصة ولاهدى

يا أخي ما أخبرتك بأحوالي هذه إلا رجاء أن تتحرك همتك لي بالشفقة
والرأفة، فتدعو الله لي بقلب حاضر منور بنور الشفقة والرحمة، ويؤمن
على دعائك من خضر من السادة الأخوان، وتقول اللهم عبدك
الضعيف عمر بن محمد الملا يدعوك ويقول:
لاتهنني بعد إكرامك لي
فشديد عادة منقطعة

وقد توسل بنا إليك نسألك أن تبلغه آماله، وإن تميته موت الشهداء،
وتحشره في زمرة السعداء، وأن تجعل خير عمره آخره، وخير أعماله
خواتمها، وخير أيامه يوماً يلقاك فيه».

ثم دخلت

سنة اثنتين وثمانين

قال العماد: فرحل السلطان إلى الشام، وودع مظفر الدين صاحب حران من الفرات، ورحل صوب حلب والعاذل صاحبها على المقدمة، وقد هيا أسباب التكرمة، فوصل حلب في العشر الأوسط من المحرم، ثم رتب العادل في حلب نوابه، وصحب السلطان فوصلوا حماة، وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، وهو صاحب بوقبيس، وقد جمع النهضة والأمانة، وصل السلطان إلى حمص وقرر أمر المجاهد أسد الدين أبا الحارث شيركوه بن ناصر الدين، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جده ولقبه بلقبه، وكتب له منشورا بما قرر عليه من البلاد، وذلك بحمص وسلمية وتدمر ووادي بني حصين والرحبة وزليبا، وكتب منشورا آخر بإسقاط المكوس بالرحبة وفيه: « وهذا دأب السلطان في جميع البلاد اقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع، وهي الخراج والأجور والزرع » واعتمد على الأمير الحاجب بدر الدين ابراهيم بن شروة الهكاري في ولاية قلعة حمص، ثم نقله إلى قلعة حلب واليا بها ست سنين ورتبه العزيز في آخر عهد السلطان بقوص.

قال: ورتب السلطان مع أسد الدين بحمص أميرا من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، فقدم على أصحابه بتولي مصالح بابه، حتى تفرد الأسد بالأمر لسداده، وبلغ مدى رشاده، ونعت بالملك المجاهد، ونهض بمحامل المجاهد.

قال: وأقمنا بحمص أياما حتى استعرضنا خزائن ناصر الدين، وقسمنا ميراثه، وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين وهي

مستحقة للثمن، والباقي بين البنت والابن، وخلف عينا وورقا مجتمعاً ومفترقا، وبلغ التراث في الملك والعين والأثاث ما عظم عن أن يقدر بمقدار، وأناف عن ألف دينار، فما اعاره السلطان طرفه، بل تركه على أهل التركة.

قال: ولما شاع بدمشق خبر دنونا احتفل أهلها، واجتمع بالمسار شملها، وطلعت أعيانها، ونبعت عيونها، ووافت أبكارها وعونها، وظهر مكنونها ومخزونها، وترامت إلينا بثمراتها ومكرماتها سهولها وحزونها، ودخلنا المدينة وزينة الدنيا خارجة، وسكينة النعمى فارجه، ودمشق كالهدي مزفوفة، وبالهدي محفوفة، وبالحسن موصوفة، وكان الناس قد ساءهم خبر المرض، فسرهم عيان السلامة، وأسهرهم الهم للاشفاق فراجعوا للشفاء كرى الكرامة، وما ألد الرجاء بعد الابلأس، والثرى غب الافلأس، والأمل عقيب اليأس، وإنهم ظفروا في حالة الايجاش بالايأس، وأمنوا بمشاهدة الأنوار السلطانية حنادس الوسواس، واجتمع السلطان في القلعة بأهله، وأقلع المرجف عن جهله، وحسنت الأحوال، وأمنت الأهوال، وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمة، وعدنا إلى عادة السعادة القديمة، واجتمع السلطان به فبته أسراه، واستزال بصفو رأيه أكداره، ودخل جنته وجنى ثماره، وزاره مرة واستنزاهه، وراجعته في مصالح دولته واستشاره، وجلس السلطان في دار العدل لكشف المظالم، وبيث المكارم، وإحياء المعالم، وإقامة مواسم المراسم.

وقال القاضي ابن شداد: ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصوله إليها يوم الأحد رابع عشر المحرم، وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشرة نحو دمشق، فلقه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة، وقرب

زائدة، ومن عليه بحمص، وأقام أياما يعتبر تركة أبيه، ثم سار يطلب
جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يوما لم ير مثله
فرحا وسورا.